أهمية المعتزلة فى التاريخ

بقلم الأستاذ على حسن عبد القادر

لم يحظ تاريخ الأديان والمذاهب عامة ، وتاريخ الدين الاسلامى ومذاهبه خاصة ، إلا بعدد قليل من الباحثين فى هذا البلد ، مع أنه كان يجب أن يعتنى بخدمته أكثر من غيره ، وخصوصاً عند علماء الدين الذين هم أمس به رحماً ، وأقرب إليه وشيجة ، وفوق ذلك فهو يجمع بين الفائدة فى الدين والعلم ، فلا غرو أن يكون من أشرف العلوم وأوفرها لدى الباحثين لذة .

وقد أبلى فى هذا المؤرخون المتقدمون بلاء حسناً ، وكان أول كتاب من هذا النوع هو كتاب « الآراء والديانات » الذى ألفه النوبختى ، وقد استوعب فيه الكتب اليونانية التى كان قد نقلها إلى العربية[1] . وللمسعودى ـ صاحب مروج الذهب ـ كتابان مختلفان فى تاريخ الأديان ، وقد ورد ذكرهما كثيراً فى كتبه [2] . وقد كتب المسبحى المتوفى (٤٢٠هـ — ١٠٢٩م) فى كتابه وصف الديانات والحضارات زهاء خمسمائة وثلاثة آلاف صفحة فى تاريخ الأديان وحدها ، وقد قيل إنه بذل فى هذه الناحية وحدها أقصى جهده ، وما وسعته نفسه من ذكاء وعلم . ثم جاء بعده أبو منصور البغدادى المتوفى (٤٢٢هـ — ١٠٣١م) وألف كتابه القيم فى ذلك . كما تلاه ابن حزم الأندلسى المتوفى (٤٦٥هـ — ١٠٦٤م) وكتب مؤلفه فى الملل والنحل ، الذى جمع فيه صنوفاً من العلم والحكمة ، على حين ألف البيرونى كتابه (تاريخ الهند) فوصف فيه أديان الهند وصفاً شافياً [3] . وكذلك الشهرستانى وصاحب كتاب البدء والتاريخ وغيرهم ممن ألفوا فى هذه الناحية تآليف جامعة ، وأغنوا غناء مشكوراً .

وللغربيين فى العصر الحديث جهود حميدة فى هذا الصدد ، ولهم فى الدين الاسلامى مؤلفات تشهد لهم بالعلم الجم ، والتمحيص والبحث ، الذى يدل على شغف وصبر فائق واطلاع واسع .

وإنه ليأخذك العجب والاعجاب لدى قراءتك أمثال ما كتبه : فون كريمر ، وشتيتر ،

(١) المسعودى ج ١ ص ١٥٦ ، الفهرست ص ١٧٧ (٢) المسعودى ج ١ ص ٢٠٠

(٣) Meg, Die Renaissance, S 201.

وجولدزيهر ، وجرم ، وغيرهم من المستشرقين الذى عنوا بهذه الأبحاث ، ولا ينقص فضل هؤلاء العلماء بعض هنات لهم يتغاضى عنها كل ذى يقين سليم ، وفكر ثاقب .

وسأتناول هنا بعض أبحاث فى تاريخ المذاهب الاسلامية ، كنت قد أعددت بعضها لتكون نواة لعمل صالح فى هذا الموضوع ؛ وإنى أبدأ الآن بالكلام على فرقة من الفرق ذات الشأن الجليل فى الاسلام ، هى فرقة المعتزلة ، وقد أضعف أمرها وقلل من شأنها مايرميها به كثير من الناس من الزيغ والابتداع فى الدين ، مع أن الاعتزال يعتقد به كثير من أهل المذاهب الاسلامية ، حتى أهل الحديث الذين اعتاد الناس أن يحسبوهم من ألد أعداء المعتزلة .(١) وإنه لما ينبغى للمسلم تورعاً ألا يطلق لسانه بالضلالة فى أحد من المسلمين ماوجد إلى ذلك طريقاً ؛ ولعل خير مانهتدى به فى هذا الموقف هذا الحديث ، قال مسعر بن كدام : «ما أدركت من له عقل كعقل ابن مرة ، جاءه رجل فقال: عافاك الله جئتك مسترشداً ، إنى رجل دخلت فى جميع هذه الأهواء ، فما أدخل فى هوى منها إلا القرآن أدخلنى فيه ، ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجنى منه ، حتى بقيت ليس فى يدى شىء ، قال أرأيت هل اختلفوا فى أن محمداً رسول الله ، وأن ما أتى به من الله حق؟ قال: لا ، قال : فهل اختلفوا فى القرآن أنه كتاب الله ؟ قال لا ، قال : فهل اختلفوا فى دين الله أنه الاسلام ؟ قال : لا ، قال: فهل اختلفوا فى الكعبة أنها القبلة ؟ قال لا . . . فذكر هذا وأشباهه ثم قرأ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » قال : فهل تدرى ما المحكم ؟ قال : لا ، قال المحكم ما اجتمعوا عليه والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك فى المحكم ، وإياك والخوض فى المتشابه ، فقال الرجل : الحمد لله الذى أرشدنى على يديك فوالله لقد قمت من عندك وإنى لحسن الحال » (٢) .

والمعتزلة فرقة كلامية ، لاتعنى كثيراً بالفقه ، وعندهم أن كل مجتهد مصيب فى الفروع حسب ، واحتجوا بالذين أشكلت عليهم القبلة زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، كل قوم إلى جهة ، فلم يأمر من أخطأ بالاعادة ، بل جعله بمثابة من أصابها ، قال بعض العلماء : وهذه المقالة تعجبنى ، ألا ترى أن أصحاب النبى قد اختلفوا وجعل اختلافهم رحمة ، وقال : بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وقال سفيان بن عيينة : إن الله لا يعذب أحداً على ما اختلف فيه العلماء .

وترجع أهمية المعتزلة فى التاريخ إلى أن حركتها كانت الحركة الأولى فى سبيل التحرر من البدع والخرافات التى سيطرت على عقول العامة ، وكانت ترمى إلى التمسك بالدين الصحيح والآله الواحد العادل ، ولذا سموا أنفسهم «أهل العدل والتوحيد» ؛ يقول عنهم (جولد زيهر):

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٣٩ ، (٢) أحسن التقاسيم ص ٣٦٥ .

« إنما لم نسمع من فم المعتزلة صوت المخالفة للدين ، ولكن سمعنا صوت الضمير المتدين الذى يناضل ضد كل مالا يليق بالله تعالى وعلاقته بعبيده » [١] ؛ وكانت تعاصر الدين الاسلامى فى هذا الوقت أديان أخرى ذات عقائد محررة على نظم فلسفية ، ولم تكن قد بحثت عقائد الاسلام إذ ذاك بحثاً منطقياً ، فقامت المعتزلة بهذا ، واستعانت بما استعان به أهل الأديان الأخرى من جدل منظم ، وفلسفة دقيقة ، وحصنت الدين بسياج من القوة أمام خصومه ، وفى ذلك يقول القائل :

ما ملة فوق ظهر الأرض من ملل إلا تهيب من تسآل معتزل
قوم إذا ناظروا صالوا بعلمهم صول البزاة على الدراج والحجل
لله درهم فهماً ومعرفة وفطنة بلطيف القول والجدل

فكانت المعتزلة بذلك أول من أدخل الفلسفة فى الدين الاسلامى ، وذلك بعد أن طالعوا كتب الفلسفة اليونانية ، وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة ، واستخدموا لذلك طريقة عرفت فيما بعد « بعلم الكلام » ، والتى هى بحق فلسفة الدين. يقول الاستاذ (شتينر): « إنه يمكننا أن نقول: إن المعتزلة كانوا هم أول من اطلع على الفلسفة اليونانية وأنشأوا بهذا العلوم النافعة ؛ وكان غرضهم من ذلك الانتفاع بالثقافة اليونانية ليضيفوها إلى الدين الاسلامى »[٢] ؛ وكان أهل السنة ينفرون من هذا العلم فى أول الأمر : وينهون عن هذه الفلسفة ، إلى أن جاء أبو الحسن الأشعرى الذى تدرب فى مدارس المعتزلة ، وتسلح بأسلحتهم المنطقية التى أمدوه بها ، ثم فارقهم وواجههم بالخصومة ، وصرف حياته فى معارضتهم بكل نشاط وتوفيق ؛ وكان هو أول من استعمل طريقتهم فى البحث ، والمناظرة ، والاستدلال لنصرة مذهب أهل الحديث ، ومع ذلك لم يقدروا جهوده إلى وقت طويل ، وبقى عندهم معتزلياً ، ومن ذلك الحين سار أهل السنة فى هذا الطريق ، وتابعوا المعتزلة فى كلامهم ، وجاء المتأخرون وجدوا فى نصرة مذهب الأشعرى وقيادته ، على حين لم يجد المعتزلة قائداً لهم أو مجدداً فى مذهبهم ، ومن هنا كانت حركة المعتزلة أساس الفلسفة الاسلامية ، ولا بد فى دراسة هذه الفلسفة من معرفتها .

والمعتزلة كذلك هم الذين وسعوا علم أصول الفقه ، يظهر ذلك لمن تتبع تاريخ هذا العلم ؛ وكتب الأصول المتداولة مأخوذة من كتبهم، يقول صاحب « المنية والأمل »: إن أصل كتب المتأخرين كالامام الرازى وغيره، هو كتاب «المعتمد» الذى ألفه أبو الحسن البصرى المعتزلى المعاصر لابن سينا [٣] .

(١) Goldziher, Vorlesung uber den Islam, S. 96. (٢) Steiner, Mutazliten, S. 5
(٣) أرنولد : طبقات المعتزلة للمرتضى ص ٧١

وكانت أهمية المعتزلة فى تفسير القرآن الكريم مقطوعة النظير ؛ فقد حدثنا الأشعرى أن أستاذه الجبائى المعتزلى له تفسير فى القرآن اعتمد فيه على ما ألهمه قلبه [١] ، وقد كتب على بن عيسى الرمانى المعتزلى المتوفى (٣٨٥هـ — ٩٩٥م) تفسيراً للقرآن ، وقد سئل الصاحب ابن عباد أن يفسر القرآن فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى ما نكتبه ؟ [٢] كما كتب النقاش المعتزلى المتوفى ببغداد (٣٥١هـ — ٩٦٢م) تفسيره فى اثنتى عشرة ألف صفحة ، وقد قال السيوطى : إن أبا بكر الأدفاوى كتبه فى عشرين ومائة جزءاً [٣] ، وفاق هؤلاء جميعاً عبد السلام القزوينى المعتزلى المتوفى (٤٨٣هـ — ١٠٩٠م) فقد فسر القرآن فى ثلثمائة مجلد ، وفسر الفاتحة وحدها فى سبعة مجلدات[٤]،وتتبين طريقتهم فى التفسير مما ذكره السيوطى من أن عبيد الله الأزدى المعتزلى (٣٨٧هـ — ٩٩٧م) ذكر فى تفسيره للقرآن مائة وعشرين رأياً فى معنى اسم الله (الرحمن الرحيم) ، ويكفى المعتزلة فخراً تفسيره «الكشاف» للزمخشرى، وقد ذكره ابن خلدون فى موضوعين من مقدمته وأثنى عليه ورغب فى مطالعته ، هذا على حين كان العلماء يتورعون إذ ذاك عن تفسير القرآن .

وجملة القول أن هذه الفرقة هى أول فرقة عملت على أن يتسع نطاق علوم الدين بعد أن كانت تدور فى محيط ضيق ، فهدت بذلك لازدهاء الاسلام وازدهار علومه الدينية .

وإن المذاهب الأربعة التى تسود العالم الاسلامى،قد نشأت فى أيام السيادة العلمية للمعتزلة، فأبو حنيفة (٨٠هـ — ١٥٠م) ، ومالك (٩٥ هـ — ١٧٩م)، والشافعى (١٥٠هـ—٢٠٤م)، وابن حنبل (١٦٤هـ — ٢٤١م) ،قد أسسوا مذاهبهم أيام دولة المعتزلة ونهضتها،وهنا نذكر هذه الكلمات التى وصف بها الرحالة المقدسى المعتزلة من بين سائر المذاهب ، قال : « وقلما رأيت فقهاء أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ ينفكون من أربع:الرياسة،والحفظ ، والخشية ، والورع ؛ والمعتزلة من أربع : اللطافة ، والدراية ، والفسق ، والسخرية ؛ والشيعة من أربع : البغضة ، والفتنة ، واليسار ، والصيت ؛ وأصحاب الحديث من أربع : القدوة ، والهمة ، والانفاق ، والغلبة . . . الخ »[٥] .

وبعد ؛ فهذه نواح للمعتزلة تدعو للتقدير والاعجاب بهذه الطائفة الممتازة ؛ ولكن لايحملنا هذا الاعجاب على أن ننسى كثيراً من مغاليهم ، فلاننسى معاملتهم الخشنة لخصومهم

(١) Spitta, el Asari. S. 128 (٢) أرنولد : طبقات المعتزلة للمرتضى ص ٩٥ (٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣ (٤) وقال السبكى: انه ألفه فى سبعمائة مجلد . طبقات ج ٣ ص ٢٣٠(٥) أحسن التقاسيم ص ٤١.

أيام قوتهم ، وقد سودت صحيفتهم محنتهم لأهل الحديث فى مسألة خلق القرآن ، كما أن هذه الفرقة قد انقسمت إلى طوائف متعددة اشتغلت بالسفسطة ، وابتعدت كثيراً عن تعاليم الاسلام ، وكانت لهم سخافات كثيرة يأباها العقل السليم ، وهم الذين خرجوا بالاسلام ـ دين الفطرة ـ عن السهولة والبساطة إلى التعقيد والتعمق ؛ يقول الأستاذ (شتينر) : « إن تاريخ الاسلام ـ كدين سماوى فطرى ـ ينتهى بمجىء المعتزلة أولا ، وأهل السنة الذين تابعوهم آخراً »(١) ؛ نعم فانه منذ ذلك الحين الذى ثارت فيه هذه المجاجة الكلامية ، وفزعت فيه الأمة إلى أصحاب الفلسفة فى أمر دينها ، اختفت وراء ذلك آيات من الجمال والفطرة فى الدين ، وتوعرت سبله المتيسرة ، وبساطته الصافية . وأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ؟

أما نشأة هذه الفرقة ونهضتها ، ثم كيف اضمحلت ، وغلب عليها مذهب السنة ، والجماعة فى العالم الاسلامى ؛ فهو ما سنعالجه فيما يأتى إن شاء الله تعالى ؟

على حسن عبد القادر

(١) Steiner, Mutaziliten, S. 92

محطـــــة

راديو مصر الملكية

بأول شارع فاروق بالعتبة الخضراء بعمارة الأوقاف حرف « ه » تليفون ٥٣٢٥٢

إذاعات غنائية ، موسيقى ، محاضرات لنشر الثقافة العامة ، مسابقات وتسهيلات خاصة لجميع التجار المصريين الذين يعاونون الغرفة التجارية فى مصر والاسكندرية لإذاعة إعلاناتهم . تسهيلات أخرى لشراء آلات الراديو للمشتركين على اختلاف أنواعها .

والادارة فى حاجة الى (بلاسيهات) لعمليات الاعلانات بضمان مالى أو شخصى ، لتتمكن من معونة التجار المصريين فى اتصالهم بالجمهور المصرى.

عاونوا هذا المشروع المصرى الصميم ، ليتحقق غرضه الاساسى فى نشر الثقافة العامة ، والمساهمة فى النهضة الاقتصادية المصرية .